شهريات

بقلم رئيس التحرير

١ ــ مهرجان المربد الثاني

شاركت هذا الشهر في لونين من النشاط الادبي العربي ، كان اولهما مهرجان المربد الثاني الذي انعقد في البصره بين ٢ و ٥ نيسان ، والآخر « اسبوع الكتاب اللبناني » الذي أقيم في تونس العاصمة بين ١٥ و٢٣ نيسان .

اما مهرجان المربد ، فقد كنت اريد له أن يسجّل شوطا جديداً في رحلة الشعر العربي الحديث،ولا احسب انه كان حقا يستجيب لهذه الامنية .

كان المربد الاول الذي أقيم في العام الماضي مهرجانا للشعر ناجحا بما توّفر له من حسن الاعداد ووضوح الغاية واختيار العناصر المشاركة . وفي الشعر والنقد كليهما ، كانت الجدية هي الميزة التي سادت المهرجان ، فواجه الشعراء الجمهور بالاحترام وحسّ المسؤولية ، وواجه النقاد الشعراء والجمهور معا بالاحترام وحسّ المسؤولية. وأحيطت تلك الدورة باهتمام وعناية لم نلحظهما في دورة هذا العام بالمستوى نفسه ، فقد كانت روح من «الاستخفاف» تسري في اوصال هذا المربد الثاني : فكثير من الشعراء قرأوا قصائد لهم منشورة او معروفة ،والنقاد تناولوا هذه القصائد بسرعة وتعجل (وكنت انا احدهم) وان كان السبب في ذلك يعزى الى عدم اطلاعهم على القصائد الا بعد القائها وعدم منحهم الفرصة الكافية لدراسة هذه القصائد ، ومنظمو الاحتفال تركوا الامور تجري على هواها . .

ولقد رحبنا بمهرجان المربد حين اقيم في العام الماضي ، ولا نزال نرحب بانعقاده ، ولكننا بدأنا نخشى ان يدركه ما يدرك مؤتمراتنا الادبية من نمطيّة وتكرار. ونودّ هنا ان نقدمّ بعض المقترحات لتجنيبه هذه المآخذ في دوراته القادمة :

اولا ــ اننا لا نجد ضرورة ماسة لعقد مهرجان سنوي للشعر في المربد يشارك فيه الشعراء انفسهم والنقاد انفسهم والباحثون انفسهم . فقد لا يكون لدى هؤلاء جميعا جديد هام يقدمونه كل عام وقد لا يكون فيما يقدمون التطوّر المنشود للشعر والشعراء . ونقترح ان يعقد المهرجان مرة كل ثلاثة اعوام .

ثانيا ــ لا بدّ من مطالبة المشاركين بتقديم انتاج شعري جديد . فان لم يكن عندهم جديد يرضون عنه ، فليعتذروا عن حضور المهرجان .

ثالثا ــ لا بدّ من توفير المادة الشعرية للنقاد قبل انعقاد المهرجان بوقت كاف يمكّنهم من تناول هذه المادة بالجد والتعمق والدراسة الرصينة . وهذا وحده ما يحول دون الارتجال .

رابعا ــ لا مناص من ان يكون شعراء البلد المضيف اكثر عددا من الضيوف . ولكن ينبغي ان نتجنب الوقوع في المبالغة ، حرصا على عدم اختلال الميزان .

خامسا ــ بدلا من المحاضرات التي اقترحنا الاستماع اليها خلال المهرجان ، نرى عقد ندوات حيّة بين الشعراء والنقاد حول الشعر الحديث ، ولا شك في ان الاقبال عليها سيكون اكبر مما كان على المحاضرات .

سادسا ــ لا بد من افساح المجال امام المزيد من شعراء الشباب . ونقترح عقد مسابقة يشارك فيها الشعراء الجدد الذين يتقدمون بقصائدهم الى اللجنة العليا للمهرجان ، فتنظر فيها وتختار خمسة منهم (او اكثر) وتدعوهم الى المشاركة بالمهرجان .

تلك بعض الملاحظات والاقتراحات التي اوحى بها المربد الثاني .

يبقى انه لا بد من توجيه الثناء الى المسؤولين في الاعلام العراقي ، وعلى رأسهم الوزير الشاعر شفيق الكمالي ، على ما يبذلونه من ضروب النشاط الثقافي الحية . وليس مهرجان المربد الا صورة منها .

٢ ـ مع ادباء تونس وقرائها

لاول مرة ، أزور تونس . ومنذ اللحظة الاولى التي وطئت فيها ترابها وتنشقت هواءها وقابلت ناسها ، تساءلت متعجبا مندهشا : كيف انقضى هذا الزمان كله من غير ان يتم بيننا اللقاء ؟

لقد أحببت هذا البلد ، طبيعه وبشرا . ان تونس بلاد جميلة ، نظيفه ، أنيقة . وانبساط ارضها يحمل شعورا بالراحة والامان . وشواطئها الممتدة كيلومترات طويلة تفتح القلب والروح لزرقة البحر ونسيمه المنعش . والخضره الميّاده في سهولها المتسعه وزيتونها الكثيف تملأ النفس املا وشوقا . ما أشبهها ، تونس هذه الخضراء ، بلبناننا الاخضر (الذي ، بالمناسبة ، نريد خضرته صافية حقيقية ، لا طلاء وبهرجا وزيفا !) والبشر في تونس ، قريبون الى القلب والنفس ، متحرّرون من كثير من العقد ، يوحون بالثقة والاطمئنان .

هذه ، بالطبع ، انطباعات اولية . ومن غير ان اعتدي على اختصاص علماء الاناسة ، فالانطباعات الاولية هي اصدق الانطباعات . ولقد قابلت في تونس مفكرين وادباء كان بيني وبينهم خلافات في وجهة النظر او العقيدة السياسية والاجتماعية ، ولكن هذا لم يجعلني اشعر بما قد أشعر به من عداء حين القى مفكرين وادباء اخرين في بعض البلدان العربية الاخرى لا اتفاق بيني وبينهم على صعيد ايديولوجي .

كان احساسي الاول ان تونس تفتح لي ذراعيها ، بعد طول قطيعة ، فلا أتردد لحظة في الارتماء على صدرها . وبشعور من المحبة ، وبحسّ من اتفاق غير معلن ، شربنا نخب هذا اللقاء الاول الذي لا بدّ ان تتبعه لقاءات .

وكان قد طلب مني ان القي محاضرة في تونس ، بمناسبة اقامة اسبوع الكتاب اللبناني هناك ، فتجنبت اختيار اي موضوع اكاديمي ، وآثرت ان أتحدث عن « تجربتي الادبية بين الواقع والفن » لأعمّق هذه الصميمية التي كنت استشعرتها بيني وبين التونسيين حتى قبل أن أصل الى بلدهم .

وقد استمعوا اليّ بود ، واحسست انهم يحتضنون تجربتي ، ويعرفونها ، ويتابعونها عبر رواياتي وقصصي ومجلتي ، فداخلني تجاههم ما يشبه الشعور بالعرفان . ومع الكهول الذين رأيتهم في قاعة المحاضرات شعرت بنضج كهولتي ، ومع الشبان الذين كنت انظر الى عيونهم وأنا اتحدث عني وعنهم ، استعدت شبابي ، بل زعمت لنفسي انني ما ازال شابا ، وان تجربتي هي بعد في اول مراحلها وان امامي مراحل كثيرة اخرى من العطاء . .

وقليلون هم الادباء او القراء الذين لقيتهم ولم يشيروا الى رواية « الحي اللاتيني » على انها هي التي عقدت بينهم وبيني صداقة عميقة لن يبليها الزمن . وقلت لنفسي : ذلك هو عزاؤنا الحقيقي ، ان نبقى لنا صداقات ابدية حين نضطر الى الصمت ، او حين نغيب . . وذكرني بعض القراء والادباء باسم بطل في روايتي هو «ربيع» كنت قد نسيته حقا ، وسألوني : اليس « ربيع » هذا التونسي هو المرحوم الدكتور فريد غازي ؟ فاذا بي أستحضر صوره هذا الشاب العصبي الناري النظرات الراجف الاصابع الذي كنت القاه في مكتبة السوربون في الخمسينات ، والذي كان يقرأ لي بعض شعره وهو قلق غير مستقرّ ، مرتاب في ان يكون قد وفق الى التعبير عما يريد ، الى اليوم الذي بسط لي ورقة بيضاء لا حرف فيها وقال : تلك هي اجمل قصيدة يمكن لانسان ان يكتبها . .

وحدثوني عن فريد غازي بعد عودته من باريس . وعن نشاطه وانتاجه ، وعن المكانة التي احتلها في عالم الفكر والادب قبل ان يلوي المرض عوده ويخنق عبقريته ادبيه بدأت تتفتح عنده عن براعم واعدة . .

وقلت في نفسي متسائلا : ألم اكن اقصد من اختيار « ربيع » التونسي ، الى جانب ابطال الرواية الآخرين ان اؤكد وحدة المصير العربي في وحدة مفكريه وادبائه ؟ الا يتكرر اليوم ، في تونس . كما تم في باريس ، لقاء «سامي» و«ربيع» ؟ وهل يسمح القدر العربي ان تتباعد طويلا بلاد مرصودة ابدا للقاء ؟

* * *

وعلى صعيد الادب ، يبدو التونسيون من اشد القراء العرب اقبالا على المطالعة ، وشوقا الى الثقافة . واللجان الثقافية القومية القومية ، في العاصمة والولايات ، تبدي من النشاط في اقامة المحاضرات والمعارض ما لا أحسب ان هناك مثيلا له في الوطن العربي . والطريف في هذه الظاهرة ان اللجان الثقافية في الولايات تتنافس في دعوة المحاضرين الذين يفدون الى العاصمة ، وتعدّ تخلّف المحاضر عن تلبية دعواتها ، أيا كان السبب ، ما يشبه الاهانة ، فترسل الاحتجاجات الى اللجنة الثقافية المركزية ، وقد تتهمها بالتآمر عليها !

وقد كنت سعيدا بتلبية دعوة عدة مدن تونسية لالقاء المحاضرة نفسها التي كان طبيعيا ان أملّها ! ولكني كنت في كل مدينة أجد جمهورا جديدا . . وقد أحسست في جمهور سوسه وصفاقس تجاوبا عميقا وصميميا جعلني أفتح باب النقاش بعد المحاضرة ، واضع نفسي احيانا في قفص الاتهام ، من غير ان يطلب مني أحد ذلك !

وتابعت في العاصمة صراعا خفيا ، هو الصراع الابدي

في اجيـال الادباء .

وبالرغم من ان نية مجله « الآداب » حين ارادت ان تقدم ملفا عن الادب التونسي الحديث ، كانت نية صادقة في تقديم نماذج تمثل نتاج التونسيين ، فقد أثار هـذا الملف ذلك الصراع والهب نـاره ..

وفي ندوة دعيت اليهـا في دار الثقافـة ــ ابـن رشيق ، نهض شاب متحمس يحذرني من الاعتقـاد بـان هذا الملف يمثل حقـا الادب التونسي الحديث ، او كل الادب التونسي الحديث ... وكان ان اجبته مبتسما بانه ليس ثمـه في العدد ما يوحي بذلك ، ولم يدّع « اتحاد الكتاب التونسيين » الذي تطوع باعداد هذا الملف انه ممثل لكل الادباء ولكل الاتجاهات .. بل ان في تقديم الملف بالمجله اشاره الى ان الاتحـاد مسؤول عن بث الماده بحسناتهـا وسيئاتها .. وهذا ما يوحي حتمـا بان الابواب لم تقفل ... واذن ، فليتناول الادباء التونسيين ، جميع الادبـاء التونسيين ، اقلامهم ، وليقتحمـوا ابـواب « الاداب » المشرعه لهم .. ان ما يقدمونه هو وحده ما يمثلهم ، وسيكون القراء والنقاد هم الحكم الصالح .

وسنمضي بيانا باسم « الادباء الطليعيين » . وقلت لهم أن « الاداب » ستنشره ، دون أن اقول لهم انـي لا احب كثيرا هذه التصنيفات التي نغرم بها نحن العـرب كثيرا .. فاذا كان لدى « اتحاد الكتاب التونسيين » مـا يقولون في هذا البيان ، فنحن به مرحّبون ...

ان هذا الصراع دليل حيوية . ودليل حيويه كذلك استمرار معركة التعريب في تونس . ولئن كان صراع الاجيال بين الادباء لن ينتهي في ايام معدودات ، بل سيبقى ابد الدهر ما دام هناك اجيال ، فان معركه التعريب لا يمكن ان تستمر الى الابد . ان العربية ستنتصر آخر الامر ، لان التونسيين من الشعب العربي ، وعروبتهم لا تقل أصالـة عن عروبة السوريين والعراقيين والجزائريين واللبنانيين وسائر المواطنين في الوطن العربي الاكبر .

٣ ــ رواية احلام .. من الماضي

ربما كانت هذه هي المرة العاشرة التي أعود فيها الى روايـة « مولن الكبير » Le grand moulnes

انني اتذكر هذه الرواية الفرنسية التي شرعت لـي أبواب الادب العالمي كلما أحسستني بحاجة الى البـراءة والصفاء والجو المسحـور .

وقد أشرت غير مرة ، في كتاباتي ، الى تأثير هـذه الرواية على تكويني الفني ، وأعتقد ان اثرها سيبقى في انتاجي القادم كله ، وكان قد سبق لي ان ترجمتها الـى العربيـة في اول عهدي بالترجمة ، منذ أكثر من ثلاثيـن عامـا .. وظلت هذه الترجمة في ادراجي اعواما طويلة ، الى ان صدرت ترجمة اخرى لها منذ سنوات .. وما زلت احتفظ بنص الترجمة كرمز لاول اعمالي المترجمة ، وكذكرى اثيرة لواحدة من اروع الروايات الاجنبية التي قراتها .

وليس مؤلفها الين فورنيه بالكاتب المشهور لـدى القراء العرب . وليس في ذلك اية غرابة ، فهـو حتـى سنوات قليلة كان مغمورا فـي فرنسا نفسها ، مسقط راسه . ولولا ان عددا من النقاد المعاصرين التفتوا الـى روايته هذه الوحيدة فاكتشفوا فيهـا اثرا ادبيا رائعا من الانتاج الفرنسي المعاصر ، لظل هذا الكاتب مظلوما مـن التاريـخ . واحبّ هنا ان اتحدث عن المؤلف والرواية ، بعد أن فرغت من قراءتها ، ربما للمرة العاشرة ..

ولحياه الن فورنيه صله وثيقه بروايته تجعـل الحديث عنهما امرا واحدا . فقد ولد الكاتب عام ١٨٨٦ في « شابيل دانجيون » بفرنسا ونشا مفعما بروح من الاستقلال والحريه تتجلى واضحه في روايته وليس افضل لتصوير هذه الروح من تسجيل الحادث الذي اوحى للكـاتب بروايتـه ، والذي هو في ذاته دليل صدق اصيل لديه .

في يوم هادىء من أيام نوار التقى الن فورنيه بفتاة رائعـة الجمال فاقتفى أثرهـا . وتوجهت الفتـاة اليـه بكلمات تنم عن انهـا لم تحتقره .. على انـه ما لبث ان عرف انهـا قـد تزوجت ، فسقط في ما يشبه اليـأس مـن الحيـاة .

هي ذي المأساة التي وعتها حياه فورنيه . واثر هذه الحادثه في نفس الكاتب يتجلى في اقواله وتصريحاته ، ومنهـا قوله : « لم تقع عيني على اجمل منها او آنق : انها روح ، ولكنهـا روح مرئيه ، ممثلة بوجه ، حيّة بمشية . انها على جمال ليس من الممكن التعبير عنه ! مئة جملـة تعرض لي لهذه الغاية ، ولكن اية واحدة لا تمثل الحقيقة ... اما التقاؤنا فكان مبهما . كنا نتعلل بالقول أن احدنا يعرف الاخر اكثر من معرفته نفسه .. وهذا القول علـى حظ كبير من الصحة ، لانه يمثل الواقع بحذافيره . واما الحب الذي ترعرع بغرابة واخلاص ، فقد كان من الطهارة بحيث صعب علينا تحمله ... وقد رغبت اليّ ذات يـوم الا أصحبها الى ابعد مما تود ، فرضخت واتكأت الى عمـاد جسر أنظر اليهـا ذاهبة ، ثم رأيتها تنتقل لتنظر اليّ ، فاذا انا اخطـو بضع خطوات الى العماد التالي ، اكـاد اذوب شوقا اليها . ولكنها تابعت سيرها ، وقبل ان تختفي ، والى الابد ، نظرت اليّ مرة اخرى ، هل كان ذلك بمثابة امر : الا اتقدم اكثر مما فعلت ، ام كان ليتاح لي مرة اخيرة النظـر اليهـا وجها لوجه ؟ ذلك ما بقـي سرا استحال عليّ تفسيره » .

وهكذا كانت هذه المغامرة الصغيرة كافية لتقلق حياة الن فورنيه كلها . غيـر انها فجرت موهبته الادبية ، فبدأ يكتب رائعته « مولن الكبير » .. كتبها ببسـاطة وسهولة

وصدق ، كما يخبر احدى رسائله ، وكانت هي قصته . غير ان اعجب ما في الامر انه بعد ان نفضها على الورق ، امتلأ أسى وحزنا ، وعاوده اليأس الشديد حتى قال ،قبيل الحرب العالمية الاولى : « اذا وقعت الحرب ، وذهبت الى ساحة القتال ، فانا على يقين من انني لن أعود قط من الساحة » وفي الواقع ، انطلق فورنيه مع صديقه الناقد « ريفير » الى الساحة في ٤ آب ، وبعد ايام قليلة بلغ احد اصدقائه انه قتل ، ولم يعثر على جثته .

اما « مولن الكبير » فتعزى روعتها الى جو السحر الذي يغمر احداثها وابطالها بالرغم من انها واقعية شديدة اللصوق بالحياة . ولكن الين فورنيه لفرط تشبثه بالحياة استطاع ان ينتقل من حياة الحلم الى فن الحلم ، وهو يقول في ذلك : « لن يكون خلفي الا قليل من الحلم العذب اضعه كما اشاء فيمنحني ، حين التفت اليه ثقة وشجاعة ، وامنا وعذوبة .» وهكذا يطوي الواقع لهواه ، عن طريق الحلم . يحب فتاة يراها في طريقه ، ثم يحسب انها كانت طيفا من خيال جسدته له الاحلام . وهكذا كتب فورنيه رواية كانت حوارا ابديا بين الحلم والواقع .

انها قصة طالب في السابعة عشرة ، تاه ذات مساء عن بيته ، أو عن مدرسته الداخلية ، فحضر احتفالا غريبا كان فيه عيد زواج فتى عجيب يدعى فرانز دوغاليه ، دعا اليه عددا من الفتيان والاولاد ، وقد استقبل مولن على انه مدعو ، وراح ينتظر وصول العروسين . غيران العريس البوهيمي يصل وحده فجأة ، وبطريقة خفيفة ، فيبوح لمولن الذي كان الوحيد الذي رآه ، يبوح له بخيبته ويختفي ثانية ، بعد ان يتعاهدا على الا يتزوجا الا معا في المستقبل . وفي هذه الاثناء يتعرف مولن بفتاة رائعة الجمال خيل اليه انه كان قد رآها في حلمه ، فوقع في غرامها ، ثم اضطر الى الذهاب كما ذهب جميع المدعوين. وتصبح حياته بعد ذلك جهدا متواصلا للعثور على بيت هذه الفتاة ، علما بانه كان قد وصل اليه بطريق الاتفاق ، ثم غادره في أثناء الليل ، فاضاع آثاره . وحين عثر على البيت من جديد ، وقابل الفتاة التي احبها ، عقد قرانه عليها . وهنا يبرز الفتى البوهيمي ، فاذا هو اخو الفتاة التي اصبحت زوجة مولن ، ولكن ذلك لم يمنعه من تذكير مولن بوعده وعهده ، فاذا بمولن يترك زوجته تحاملا ويغادر البيت بحثا عن خطيبة البوهيمي ، آملا في ان يجمعهما للزواج مرة اخرى . وقد تمكن بعد جهود وشهور طويلة من ذلك ، ولكنه حين عاد الى بيته فوجيء بنبأ موت زوجته بعد أن وضعت له طفلة .

هذا هو موجز « مولن الكبير » . ولا شك في انه تشويه للاصل وخيانة لروعة الرواية ، هذه الروعة التي لا تبدو في حبكة القصة بقدر ما تبدو في الجو السحري الذي يسيل على الاحداث والاشخاص ويصور عالم الطفولة والحداثة ، وهو عالم يذكر بجنة ضائعة لانه رمز ومثال للطهر والبراءة ، والحق ان « مولن الكبير » ينشر اثيرا من الطهارة الطفولية قلما نجده في اية رواية اخرى . وذلك السحر ينبعث كذلك من القصر العجيب الذي تدور فيه الحفلة الغريبة ، ثم تنبثق منه ايفون دوغاليه التي هي روح هذا العالم كله ، انها اقرب الى ان تكون حلما متجسدا ، ودورها ليس في ان تتحرك او تعمل ، وانما هو في ان تأتي ، وان تظهر ، بكل بساطة . .

لقد خلق الان فورنيه عملا يقع فيه كل شيء ، في ديكور يكاد يكون مستحيلا باشخاصه وعالمه المسحور وحس الغرابة فيه . والذي يضفي على « مولن الكبير » سحرها الحقيقي، انما هو القدر المناسب من العنصر العجيب الذي ألبسه المؤلف لكل حدث وكل موقف وكل بطل .

وبالرغم من غموض الحلم، فان « مولن الكبير » يتمتع بوحدة الرؤية ، والاضطلاع برسالة ، والاستجابة لنداء ... حتى « الصدرة الحريرية » التي عاد بها مولن من القصر العجيب تأخذ معنى رمزيا خفيا ، كما لو انها تترك على الفتى طابع وجود عالم آخر يطلبه لان حياته تظل حنينا متصلا الى ان يلتقي ثانية بهذا العالم .

والحق ان القارىء حين يهرب من « مولن الكبير » الى القصر العجيب ، وحين يملأه الامل بأن يعثر عليه ثانية بعد اضاعة آثاره ، انما يشعر بانه يتبع حلما ذاتيا له، لا حلما لمولن وحسب . فهو يبدو وكأنه برحل هو ايضا بحثا عن جمال لمحه ذات لحظة ، ثم اضاعه ، وربما كانت نقطة الانطلاق هذه التي يألفها كثير من القراء هي التي تحقق مثل هذا الفرار الرائع . فالقارىء لا يتمتع فقط بقراءة رواية جميلة ، بل هو يماشي البراءة ويحاذي الجمال والكمال .

وبعد ، فأن كل شيء في « مولن الكبير » حقيقي ، ولكن دون ان يظهر . وقد بلغ المؤلف غايته ،على حد قول كلود افلين ،في ادراج العجيبة في الحقيقة ، ووفق الى تحقيق هدفه بان يكتب قصة تحييها حركة سرمدية لا شعورية بين الحلم والحقيقة .

سهيل ادريس

صدر حديثا

وسام على صدر الميليشيا

للشاعر خالد ابو خالد

دار الآداب